أعراس بني يزناسن بالأمس القريب

محمد ستي

الأعراس مناسبة احتفالية للإشهار بالزواج، تختلف طقوسها من منطقة إلى أخرى رغم تشاركها في بعضها، إلا أن أشواطا قبل إقرار الزواج كان لابد من تخطيها كتقليد متعارف عليه، باعتباره أساس نجاح العشرة الزوجية، لذلك فاختيار العروس له من الأهميه في إرساء نوع من التماسك، بانتسابها إلى المجتمع العائلي الصغير الذي يرتبط فيه أفرادها بعادات و تقاليد مشتركة، يجمعها التراضي و الألفة، و هما سمتان تميزان جميع العناصر المنتمية للعائلة، و للحفاظ على هذا الترابط تحت سقف بيت الأجداد، فقد صار اختيار العروس من الشروط الأساسية لخلق نوع من التعايش و التكافل، و تقاسم المهام التي ينخرط في إنجازها رجال و نساء و أطفال في مواجهة متطلبات الحياة، فإن الأم بحميتها العرقية، و رغبتها في الإبقاء على التماسك العائلي، فإنها تتولى عملية البحث عن فتاة مناسبة، تكتمل فيها المواصفات التي تؤهلها للعيش وسط عائلة تتقاسمها أعمال البيت بخفة و نباهة(لحداكة) و أن تتوفر على مسحة من الجمال(مسرارة)، و أن تكون طيبة المعشر(مصوابة)، و خدومة(تطيع حماتها في كل صغيرة و كبيرة)، و قد يشاركها تقصي مثل هذه المعلومات الدقيقة معارف و أقارب، بامكانهم استدراج الفتاة إلى الحمام لتفحصها و الوقوف على سلامة جسدها من العيوب، كما يتم التداول معها في أمور شتى لاختبار مدى لباقتها في الحديث، و قدرتها على السماع أكثر من الثرثرة، و مدى تحملها مضايقة الآخرين و تقديمها خدمات لطالبيها، و فوق كل هذا فإنهم يتدبرون لحيلة تدخلهم منزل الفتاة للوقوف على مدى قدرتها على تدبير أشغال البيت، و مدى براعتها في تقنيات الطبخ و مستوى علاقتها بالجيران، و بعد استجماع ما أسفر عنه البحث من معلومات تولاها نسوة العائلة، يأتي دور الرجال لتعميق النبش أكثر في جذور عائلة الفتاة، لما في ذلك من أهمية في اختيار نسب يليق بهم كأخوال لأبنائهم، و بعد استكمال التقصي الذي تم إجراؤه بدقة متناهية، ينعقد مجلس العائلة للتشاور و التداول في مصير الفتاة، و أحيانا يكون للعريس كلمته في انتقاء عروسه، بعد لقاءات عند الساقية بحجة جلب الماء، أو عند العين بغرض التصبين، أو وسط الغابة بسبب جمع الحطب، ففي هذه الأماكن كانت تنسج علاقات حب طاهرة، تُتوج بالزواج بعد صراع مرير مع العائلة، التي لن تجد لها من بُدّ غير تقبل اختيار ابنها و لو عن مضض، للانتقال إلى مرحلة الخطبة التي يتولاها النسوة كزيارة أولية لانتزاع الموافقة المبدئية من أهل الفتاة، يصطحبن معهن " السكر و الحناء" كعربون لحلاوة العشرة بمحبة، و فأل خير على العروسين و أهلهما، على أن تأتي مرحلة مناقشة الصداق، يحضره الرجال للتفاصل فيه إلى أن يحدث التوافق بين الطرفين، ليتوج بالزغاريد كتعبير عن إقرار مشروع زواج، و غالبا ما كان يصطحب في مثل هذه المواقف رجل يتميز بعلو الهامة بين أفراد القبيلة تكون كلمته مسموعة، لا يتجرأ أحد على مجافاتها، يتدخل عند المواقف الحرجة لتلطيف الأجواء، و خلق الانسجام و التجاوب بين الطرفين، ثم بعد ذلك تأتي مرحلة عقد القِران بعد مشاورة العدول للعروس من وراء حجاب بحضور شاهدين، ليتم توثيق الصداق المتفق عليه كشرط لإضفاء الشرعية على الزواج، فتقام احتفالا بهذه المناسبة وليمة بسيطة تجمع العائلتين، و لم تكن وقتها تشبك العروس بخاتم، بل كانت تحجب عن العريس إلى ليلة الدخلة، و لعل ما كان يميز المهر حينها ما اصطلح عليه" باللويز"، أما عند العائلات الميسورة فكان صداقها" لكرفاش بولحية"، و تبريكا لهذا الزواج فقد كان حضور فقيه الدوار أمرا ضروريا لتنكيه المناسبة ببعض الأدعية حتى تحل البركة على الزوجين.

و قبل الزواج تبدأ مرحلة الإعداد لاستقبال هذا اليوم المقدس بكل شهامة و كرم، حيث يتم من جانب أهل العريس اقتناء مستلزمات العروس، من ألبسة و أدوات الزينة من حلي و كحل و سواك، و تجهيز البيت الذي سيضم العروسين بالحاجيات الضرورية، من فراش و صندوق لتأثيث الملابس و ترتيبها، و تجديد صباغة الجدران بألوان زاهية لتبدو في رونقها المعهود في مثل هذه المناسبات، ليتم إغلاقه بعد الانتهاء من الترتيبات، و تتولى الأم حراسته و لا يلجه أحد خوفا من أي مكروه قد يصيب العروسين ليلة الدخلة، هواجس لا زالت تلاحق العائلات من أن يتعرض العريس لما يسمى "اتقاف"، لذلك يتم تحصينه و البيت معا تفاديا للحرج الذي سيتحمل وزره عائلة العريس، و لضمان استكمال فرحة العرس فإن الأدوار على تنوعها تتوزع حسب القدرات على المقربين و المعارف لإنجاز المطلوب، فمن النسوة من تتكلف بإعداد حلويات البيض، و أخريات تنسقن مع أهل العروس لخياطة الألبسة، و غسل الصوف و "نغدها" لصنع الأغطية "بورابح" و عدد من "الألحف"، و كلها إجراءات تتم في سرية بين العائلتين، كما يقوم أب

العريس باقتناء أكباش العرس بمواصفات خاصة تشرّفه أمام أهل العروس، تعبيرا منه على الشهامة و الكرم، و أنه أهل بنسبهم و يستحقون ما يوصل إليهم في إطار ما يطلق عليه" بالدفوع ."
هكذا كان يختار بنو يزناسن نساءهم بدقة متناهية للحفاظ على تماسك العائلة، في إطار التعاون لمواجهة متطلبات الحياة، بينما اتخذ هذا الطقس منحى آخر في ظل التغيرات التي عرفها العالم من انفتاح على الثقافات البشرية الأخرى، ليحدث انقلاب جذري على التقاليد بمختلفها، بما في ذالك طقوس الزواج، فصار التعارف يتم خارج نطاق العائلة، و اختيار قاعة الحفلات و مراسيم الاحتفال تتم بالتنسيق مع الممون، ليتولى جميع الاعدادات و المتطلبات التي يقتضيها العرس الذي يدوم عمره ليلة و احدة و ينفض الجميع.

بعد إتمام الإعدادات المتواصلة لمراسم العرس التي استغرقت زمنا قياسيا شارك فيه الأحباب و الجيران، بطواعية و إقبال تام على ممارسة المهام الموزعة عليهم، في جو يطبعه المرح بتبادل المستملحات، و تذكر مواقف مثيرة عن مناسبات مضت، مما يعطي لهذه المرحلة من الاستعدادات نكهة خاصة، يستلذها المشاركون و يستطعمون أجواءها رغم كثرة الأشغال و المهام، لتميزهم بالروح المرحة الممزوجة بالرغبة في التطوع و العطاء و احتواء الآخر و مساعدته، و هو ما أبقى على التماسك الاجتماعي و سعوا جاهدين إلى الحفاظ عليه، و في غمرة الإعدادات و ما يصاحبها من عناء فإن الإبتسامة لم تكن تفارق محياهم، مع الإلحاح في الترحيب و إكرام الوافدين عليهم، حتى أنهم كانوا يعلقون أعلاما بيضاء فوق المنزل إيذانا ببداية العرس و أن الجميع مرحب به لمشاركة العائلة فرحها .
بعد التحاق الأحباب و الجيران يبدأ الإعداد" للدفوع"، و هي عملية لها أهميتها من حيث كونها ترمز إلى قدرة صاحبها على تحمل مسؤولية عروسه، بما يوفره من مستلزمات العرس كمؤشر على الاهتمام الذي سيوليه لها دون تقصير، في إشارة إلى مسار الحياة الذي سيقطعونه معا بنضج و مسؤولية، إذا علمنا أن الزواج كان يتم في سن مبكر، و هي رسالة واضحة إلى أهل العروس أنها ستبدل دارا خير من دارها، بما سترفل فيه من نعيم سيكون تحت تصرفها، كما تعبر في ذات الوقت عن تشريف تستحقه و عائلتها، و كلما زاد و وفى إلا و دل على كرم صاحبه، و من مستلزمات" الدفوع" الأساسية أن يكون" كبشان" أو " عجل"، يتم تخضيب قوائمه بالحناء، و كذلك يزين بها ظهرها، و احتياجات أخرى ضرورية للإعداد لوليمة" الحناء" تتجلى في" البصل و الطماطم و الحمص أو الزيتون و الزيت وووو."
و لعل ما يميز" الدفوع" تلك الأهازيج الاحتفالية التي كان يتزعمها النساء من رقص و غناء جماعي، يشاركهن الرجال أيضا، إلى جانب فرقة" العرفة" التي كانت تخلق أجواء أخرى من التنشيط، يتفاعل معها جميع المدعوين بانخراطهم في رقصات متنوعة" لحساب"، و النساء بصوتهن الصادح لم تكن تنقطعن عن إطلاق " الزغاريد" بين الفينة و الأخرى، لبعث الحماسة و إذكاء الفرحة، و بعد ذلك ترافق النساء الشاحنة الصغيرة المحملة بمستلزمات" الدفوع" مشيا في جو غنائي يستمر إلى غاية دار العروس، ليستقبلهن أهلها بالزغاريد و الرقص و " الغيوان" تعبيرا عن الرضا و القبول بهدية" الدفوع"، ليرحب بهن أيضا و بمن رافقهن من الرجال، ببشاشة نابعة من قلوب عامرة بالحب و الطيبة تسعان الجميع، فيقدم لهم دون تقصير الطعام و الشراب، كما تحجب العروس عن النسوة حتى لا تكشف عن زينتها و بهائها، اللذان تحتفظ بهما لعريسها إكراما له ليكون أول الناظرين إليها، بعد أن يزيل الحجاب عنها ليلة" الدخلة"، و في ذلك دلالة على المكانة التي يحتلها عندها و أنه المميز دون الآخرين، و هو تقدير من نوع آخر تلفه محبة صادقة، تقوي العشرة الزوجية و تصونها من كل مكروه، و لما كان تفكيرهم بسيطا فإن معتقدات مختلفة وجدت لها أثرا في ثقافتهم، ليصبح لديهم إيمان راسخ" بالفال" و " التطير" اللذان جعلا الحرص و الحذر سمتان تطبعان سلوكهم إلى نهاية العرس، فهو اعتقاد ارتبط بالصدفة بوقائع ماضية تكررت في الوسط الاجتماعي، حتى استبدت بعقولهم و جعلتهم يصدقون بأشياء تناقلتها الأجيال، رغم أنها بدأت تخبو، إلا أن حضورها لا زال لافتا عند بعض العائلات المحافظة، و كانت نتيجة لذلك ظهور طقوس العرس بتفاصيلها المميزة، التي ارتبط بها جميع من عايشوا المرحلة، لما تضفيه من قدسية خاصة على هذه المناسبة، فبات لكل طقس دلالته الرمزية التي تدفع إلى التشبث به أكثر، و ممارسته كفيل بنجاح العرس و حماية العروسين من أي أذية.

بعد " الدفوع" تأتي ليلة" الحناء" التي تسبق ليلة الزواج، حيث تتوسط العروس البيت في مكان مرتفع قليلا، و وجهها مغطى بحجاب من حرير، تتحلق حولها النساء في جو احتفالي، تصدح فيه حناجر الفتيات بالزغاريد و أغاني تراثية" إشربن"، و في غمرة هذه الأجواء تحضر" الحناية" و معها صحن به " حناء" تتوسطه شمعة، لتبدأ عملية" حنْئ" العروس وفق طقوس متوارثة، تتناسب و الليلة التي ستبقى منقوشة في ذاكرتها، و بين حين و آخر تقوم إحدى فتيات العائلة برش المدعوات بماء معطر لتزكية الأجواء بنفحات منعشة، و بعد الانتهاء من ربط العروس بالحناء، يتم وضع القليل منها على أيدي العازبات ليكون فأل خير عليهن للزواج، و ما بقي بالإناء تتولى الأم إخفاءه حتى لا تطوله أيادي المشعوذات الحاقدات، حرصا منها على إبعاد الأذى عن العروسين، للحفاظ على قدسية ليلة" الحناء" و الإبقاء عليها كفرصة تتزين فيها لعريسها قبل ليلة الدخلة بعيدا عن كل ما يدنس هذا الطقس.
في ارتباط بالحناء كتقليد لا تكتمل طقوس العرس إلا بها، فإن للعريس نصيب منها كلما زار أحد أقاربه أو معارفه، كما يتم وضع ترتيبات خاصة للاحتفال بليلة "الحناء" وسط أهازيج تراثية، تتبعها زغاريد صادحة تعبيرا عن فرحة المناسبة، يلبس العريس و " وزيره" جلبابا و عمامة، يوضع أمامهما صحن حناء تتوسطه بيضة، تتكلف بعملية" حنْئ" المدعوين من الشباب العزاب فتاتان في مقتبل العمر، بعد أن يتم البدئ بالعريس أولا و وزيره ثانيا، و هو من سيدفع الأتاوة عن" مولاي السلطان"، و يتبعه في ذلك باقي الشباب، ليكون المحصول المالي من نصيب الفتاتين، و ما بقي من الحناء يتوزع على العازبات لتتم لهن أمنية الزواج .
عوائد اندثر الكثير منها و تم إفراغ الأعراس من كل ما هو تراثي، بسبب إدخال عوائد جديدة أفقدتها تلك المتعة الخاصة، التي كان يستشعرها جميع من كان له شرف حضورها.

تستمر طقوس العرس متراتبة حسب المتعارف عليه، فبعد ليلة الحناء و ما رافقها من أهازيج احتفالية، تأتي مرحلة الزواج بعد أن أعد له العدة في إطار التعاون، الذي يأتي في شكل مساعدات يدوية أو مادية، أو ما اصطلح عليه ب "لهدية"، يهادي بها الأصحاب و الجيران و الأقارب أهل العريس، يقصد بها تقديم العون لتدبير متطلبات العرس الذي كان يدوم سبعة أيام أو أكثر، تكون في غالبيتها عبارة عن كبش و لوازم أخرى لها ارتباط بالوليمة، تُوصل" لهدية "لصاحبها في جو غنائي راقص، يتولاه مجموعة من النسوة أو" فرقة العرفة"، فهي ترمز إلى الكرم بكل تجلياته، تجعل صاحبها ينتشي إحساسا بالفخر و الاعتزاز في إقدامه على مبادرة تشير في عمقها إلى مدى التماسك الاجتماعي الذي يغذيه سلوك تكافلي تعاوني، يُخفف العبء و يُشعر بالاطمئنان عند التدبير الاستباقي لمتطلبات العرس، و من جانب آخر فإن خاصية التآزر في بيت العروس تأخذ شكلا آخر مختلفا و إن كان يؤدي نفس المغزى التعاوني، كانت" لغرامة" تتولى مهمتها" برّاحة"، في حرص شديد منها على إنجاح هذا الطقس، من خلال خلق جو تنافسي بين الحاضرات من النساء اللواتي يتحلقن حول العروس وهي متزينة مغطاة برداء حريري أو" الحايك"، للمزايدة على بعضهن في مهاداتها بأدوات تحتاجها لشخصها أو تأثث بها بيتها، و في الغالب تكون نقودا توظفها العروس حسب اختيارها، و رغبتها في اقتناء أشياء تعينها على تدبر متطلباتها اليومية، أو يستعين بها أهلها لاستخلاص بعض مشتريات الوليمة، و إن اختلفت المسميات بين" لهدية" التي يختص بها العريس و " لغرامة" التي تختص بها العروس إلا أنهما يؤديان نفس الهدف التعاوني، فالجميع كان يشارك بأقل ما يملك حتى لا يتلبسه العار إذا تخلف عن هذا الواجب، و كانت النسوة تطلقن زغاريد متواصلة عند أي إكرامية، و يرتجلن بعضا من الغناء المديحي، لتحريك الهمم و تشجيع الحاضرات على العطاء بسخاء، إضافة إلى أن المدعوات لا يأتين العرس إلا و في أيديهن " السكر أو الخبز"، كعربون أو فأل دال على الخير و حلاوة السعادة اللذان سيعمان بيت العروسين، و في ذات السياق التعاوني و في غمرة الغناء على أنغام راقصة، يتوسط " مولاي السلطان" و وزيره مجموعة من الشباب لينخرطا معهم في الرقص، على أن يبدأ الأصدقاء و الأقارب في مهاداته، بتعليق النقود الورقية من فئة 05 دراهم أو أكثر على جلباب العريس وهم مزهوون بإقدامهم على هذا الفعل، و بين حين و آخر تقوم الأم أو الأخت الكبرى بجمعها و الاحتفاظ بها، و تتكرر هذه العملية في ظروف مختلفة خلال ليلة واحدة و طيلة الأسبوع، و المثير خلال هذه الطقوس ذات البعد التعاوني، أن مجموعة من النسوة القريبات من أهل العروسين تتكلفن بمراقبة و

تتبع مجرياتها، في محاولة منها تذكر أسماء المتبرعين، و الأشياء التي هادوهم بها على أن ترد لهم و زيادة في أفراحهم، مما يفسر شيوع هذا الموروث الثقافي الذي طال جميع الشرائح الاجتماعية، ليبقى استمراره رهين برد الدين، الأمر الذي سيدفع بالجميع إلى الانخرط في هذا العمل التعاوني عن طواعية، تعبيرا منهم عن الشهامة و النخوة اللتان طبعتا سلوكاتهم، و قومتا تفكيرهم، و جعلتا تصرفاتهم منقادة لما تمليه عليهما من ردود أفعال إيجابية، تترجم رغبتهم في الاحتفاظ بهذا الطقس مهما كانت الاعتبارات و الظروف الحياتية معاكسة.
خلال فترة العرس يتجنب العريس ملاقاة والده إلا بعد مرور اليوم السابع، حشمة و وقارا من الجانبين، دأب عليهما اليزناسنيون و حافظوا عليهما لشعور ينتابهم، و يستبد بسلوكاتهم اتجاه بعضهما، بسبب الوضع الجديد و ما حمله من تغييرات تبعث على تبني هاتين السمتين المطلوبتان في مثل هذه المواقف إلى أن يتعودا عليه مع مرور الوقت.
كما يحدث خلال اليوم الأول من العرس عند بعض القبائل، أن يتحلق النسوة في بيت العريس حول "حفنة من القمح، يتوسطها صحن مملوء بالماء، توضع فيه بيضتان و خلخال فضي يعود لأم العريس، التي تشرع في الرقص حافية القدمين فوق القمح على نغمات أغاني تراثية، تؤديها الحاضرات من النساء، و بعد انتهاء الحفل تحتفظ الأم بالبيضتين للزوجين بعد جمع القمح."
طقوس متنوعة تختلف حسب العائلات و القبائل المتاخمة لبعضها، يصعب تعدادها و تفسير مغزاها أحيانا، إلا أنها تبقى موروثا له قيمته الثقافية و الحضارية التي لا يمكن مجافاتها، و اعتبارها نقطة عبور للتحولات التي طرأت على طقوس الزواج، في احترام تام لكل العوائد القديمة التي من سيمتها الأساسية أنها كانت تجمع جميع الأحباب، في تواصل مستمر، و تعاون مثمر خال من الأحقاد و الضغائن التي تخلق صراعات واهية.

يوم الزواج له قدسية خاصة من حيث الترتيبات التي تتخذ من الجانبين، لتمرير أجوائه في ظروف مواتية كما تقتضيه الطقوس و العوائد، فتعد الوليمة الكبرى التي تتولاها إحدى المتضلعات في مجال الطبخ يكنونها حسب التعبير المحلي "بالسخارة"، تساعدها متطوعات توزع عليهن مهام مختلفة لتحضير الأكل في وقته المناسب، و من الأكلات الشائعة التي كانت تتوسط موائد أعراس بني يزناسن "الشوربة" كطبق أول ليليه طبق ثاني" باللحم و الحمص أو الزيتون"، و هي في الغالب منتوجات محلية، و كذلك الزبدة و العسل اللذان لا يفارقان المائدة رفقة" صينية الشاي"، في صورة توحي بالقدرة على التنظيم و استيعاب العدد الهائل من المدعوين بصدر رحب يسع الجميع، يتعهدونهم بالترحيب بين الفينة و الأخرى، لما في ذلك من تقدير و علو من شأنهم، كما في تقديم الطعام و الشراب بانتظام و حرص شديدين قبل أن يستبد بهم الجوع، ما يُشعرهم بتميزهم و قيمتهم عند صاحب العرس، دون إغفال الابتسامة التي يجب أن ترتسم معالمها على محياه، و كل تصرف ينتقص من قدرهم و يستهدف أنفتهم، فإن الانسحاب من العرس سيكون ردا على سوء الترحيب، و في ذلك وصمة عار تتلبس جبين صاحب العرس و يصبح حديث القاصي و الداني، مما يفسر وجوب الالتزام بقواعد اللياقة في التعامل، و بأصول الضيافة في تكريم المدعوين، فهما صفتان ضروريتان لا يجب إغفالهما كأولوية لاستكمال شروط نجاح العرس، و من الأمثلة الشعبية المأثورة التي تعزز هذا المدلول" الضِّيفْ ما يْشرَّط أُمول الدار ما يْفَرَّط"، و التفريط هنا لا يقتصر على الأكل فقط بل يطال كذلك البشاشة في وجه المدعوين، باعتبارها عنصرا أساسيا يبعث على الرضى و الترحيب بالجميع، دون تفاضل لأحد على الآخر عندما يقال في كلام موزون" عْطيني جَبَّهْتَك أُما تَعطيني خُبزَك"، في إشارة إلى طقوس تتعلق بالسلوك الاجتماعي المبني على التعامل اللبق مع المدعوين خلال المناسبات، بهدف الحفاظ على التماسك الذي يشد الجميع إلى بعضهم، في ظل الاحترام و التقدير و سعة الخاطر، و تقبل الآخر و دمجه في أجواء العرس، ليصبح الكلام الطيب و الابتسامة التي توزع على الحاضرين، قد تم دسترتها في أمثلة شعبية مأثورة لا زالت متداولة و لكنها فارغة من محتواها، للإهمال الذي شاب الموروث الثقافي في شموليته نتيجة العولمة و الانفتاح على ثقافة الآخر.
كما كان لأهازيج الفرح طقوسه الخاصة التي يشترك فيها الجميع، و للنساء دورهن في تنكيه الأجواء بغناء راقص، متبوع بزغاريد متواصلة تبعث على الحماسة لانخراط المدعوين ، فكان للصف الذي عُرف

بالحشمة و الوقار في انتقاء الكلمات، و الألبسة المناسبة حسب ما تتطلبه العوائد، نصيبا أوفر في إحياء حفل الزفاف، حيث كانت النساء تصطففن في صف واحد، تتوسطهن" فتاية" بلباس متميز، و الوسيلة المستعملة هي "البندير"، و أحيانا تصطففن في صفين متقابلين، يرددن فيه ما اصطلح عليه "بإشربن"، تتخلله رقصات خفيفة تتماشى و إيقاع" البندير"، مع خرجات "للفتاية "من الصف عند إصدارها" لغيوان" من التراث، في حركة حماسية تخشع لها أوصالها و هي ترفع" البندير" عاليا لتجعله يُصدر أنغاما قوية، تستهوي الحاضرين و تُطبق على مشاعرهم، ليبقوا مشدوهين أمام براعتها في التنسيق بين الغناء و " البندير"، في حركة مثيرة تُحمس الرجال و تدفع بهم إلى تشكيل صف مقابل للنساء، ليبدأ سجال غيواني يحمل الكثير من المعاني و الرسائل المشفرة من العشاق، لا يستسيغها إلا المكتوي بنيران العشق، فهي نابعة من قريحة عفوية، تنساب من لسان ينطق حكمة بليغة، فيها من اللمز و الغمز ما يثير حفيظة الآخر حين يعجز عن الرد وسط حشد من المتتبعين، فيحدث أحيانا بعض اللغط في كلمات الغناء عندما تخرج عن سياقها الفرجوي و الغيواني، لتتشنج الأعصاب حتى تكاد تُوتّر أجواء الفرح، لكن أطرافا متدخلة تسيطر على الوضع، بإصدارها رقصات سريعة متبوعة بأغاني مديحية تُنسي الجميع تلك الوصله التي أحدثت التوتر، و من جانب آخر يصطف الرجال بدورهم في صفين متقابلين، ليشرعوا في الرقص بحركة متناسقة و منسجمة مع إيقاعات " البندير"، يتراجع صف للوراء و يتبعه الصف المقابل دون أن يلامسه، و ما يزين هذه اللوحة الفلكلورية تلك الأغاني الجماعية التي يرافقها رقص بالأرجل، في مشهد بهيج يعبر عن قوة أصحابها في خلق هذا النوع من الفرجة الذي يختص بهم.
كما لفرقة" العرفة" أسلوبها الخاص في تنكيه العرس بنغمات" الزامر" الذي يطرب المشاعر، إذا رافقتها إيقاعات" البندير" و مواويل" الشيخ"، الذي لا يتوقف إلا عند" التَّبراح"، ليثير تنافسية شريفة بين الحاضرين في تعداد مناقبهم مقابل دفع أتاوة، لتبدأ المزايدة على بعضهم، حتى تستشعر الواحد منهم بالزهو، فتتملكه سعادة و انتشائية مما يفعله اتجاه العريسين، و بين الفينة و الأخرى يصدر " العرفة " بطلب من المدعوين مقابل إكرامية، نغمات راقصة على إيقاع" البندير" تسمى "لحساب"، تُحرَّك فيه الذراعين و الأرجل في تناغم تام بينهما، ينخرط فيه الجميع بحماسة منقطعة النظير، و في هذه الأجواء الراقصة ترمي الأم وسطهم بالسكر المختلط" بالحناء"، لما فيهما من فأل خير على دوام الفرحة و تجنب التصادمات بين الحاضرين، فهو معتقد استمر لأمد طويل، و صار يتقلص إلى أن اندثر نهائيا و معه الكثير من العوائد.
عند العائلات الميسورة إضافة إلى أهازيج الصف و العرفة، كانوا ينكّهون الاحتفال بلون آخر مميز عرف "بلباردیا"، يقام في رحبة واسعة بجانب منها خيمة تلم المدعوين داخلها، لتتبع فصول فرجوية فيها امتزاج تام بين نغمات العرفة و صوت البارود، و لها من التعابير ما يشكل لوحة فنية، تحرك الأوصال و تبعث على الاستمتاع بالمشاهد البطولية التي يرسمها" لباردیا."

"زواج ليلة تدبير عام" مثال شعبي له مدلوله من حيث قدسية الزواج، و أهميته في الانتقال إلى مرحلة حياتية تستدعي أن يكون الشريك ذي سمعة طيبة و أخلاق دمثة، حلو المعشر، هادئ المراس، قادرا على تحمل المسؤوليات الجسام، لذلك يقتضي الزواج مرحلة من التفكير في الاختيار و تدبير التكاليف المادية، لأجل تحقيق الحلم الذي يراود الصغير و الكبير، أن تحصل في نهاية المطاف على عيش هنيء متوفر على شروط العشرة الزوجية و متطلباتها، و بعد قطع أشواط من مراسم الزواج الذي تقننه طقوس و ضوابط ملزم على الجميع التقيد بها لتمريره في أحسن الظروف، تأتي ليلة الزواج و ما يليها من استعدادات تليق بهذه اللحظة الفاصلة و الحاسمة في حياة شخصين لم يكن بينهما تلاقي، و تعظيما لهذا اليوم، فإن إعدادات الزينة تصبح سارية لاستقباله في أبدع صورة ترسمها إمرأة بتجربتها في تجميل العرائس، باستعمال الكحل و السواك، فضلا عن مشط الشعر على شكل ظفيرتين مسترسلتين، و تجميل جيد العروس بقلادة من" النقرة "مرقطة بالأحجار الكريمة، أو سلسلة بها حبات من" اللويز"، كما تزين الأذنان بأقراط مزركشة تزيد لوحة وجهها بهاء، إلى جانب التلوين الممزوج بأثر السواك و الكحل الطبيعي، حتى تكتمل الصورة و تظهر العروس في أبهى حلة، فإنها تتمنطق بحزام من" النقرة" مزين بأحجار ملونة، تضع على معصمها" مسياسا" و على رجلها خلخالا، بعد الانتهاء من تجميل العروس

تُغطى" بالحايك" تحصينا من" العين" و خوفا من سوء الطالع، و أن يكون لزوجها شرف الكشف عن زينتها بإزالة الحجاب و النظر إلى وجهها لأول مرة، تتم عملية التزيين بمعزل عن النسوة المنهمكات في أهازيج غيوانية راقصة متبوعة بزغاريد تطلقنها بين الفينة و الأخرى، و في ذات السياق فإن الأسر الميسورة كانت تكلف" ماشطة "يهودية متخصصة في تزيين العرائس للقيام بالمتعين، فالعروس إضافة إلى جانب الكحل و السواك كانت تتجمل" بلكرفاش بولحية" في عنقها، و أساور ذهبية "لمسيبعة" في يديها، و أقراطا تزين بهما حلمة أذنيها، و حزاما من" النقرة"، على أنها من علية القوم بإمكانها توفير كل الحاجات التي تحفظ مقامها، و قدر عائلتها، و التفاخر بما تقدمه احتفالا بالزفاف من أدوات الزينة، و أطباق الأكلات التي يميزها الشواء، و أهازيج احتفالية يؤطرها" لباردیا و العرفة"، فرغم التباين الاجتماعي بين العائلات في تنظيم الزفاف، إلا أن الطقوس و العوائد توحدها دون تفاضل، تلزم جميع الطبقات على تنوعها بالتقيد بها و احترامها.

بعد إتمام طقوس تجميل العروس، و قيام أهل العريس بما يلزم من إعدادات تناسب استقبال العروس في أجواء من الفرح، يتم اختيار موكب مؤلف من النساء و الرجال من قبل الزوج أو عائلته، وفق صفات تميزهم، خاصة القدرة على تحمل عناء السفر، و البراعة في التواصل مع أهل العروس عند إخراجها من بيت والدَيْها، يقود هذا الموكب أخ الزوج قاصدا بهم بيت العروس في جو احتفالي، تتعالى فيه أصوات النساء بمقاطع غنائية على نغمات" البندير"، يستمر هذا الكرنفال التقليدي إلى غاية دار العروس، ليجدوا أهلها في استقبالهم بالزغاريد، و تبادل المديح في تعداد مناقب بعضهم بإنشاد مقاطع من" إشريين"، و في غفلة من الوفد الرسمي يدخل أخ العريس لاصطحاب العروس، بينما يعترض سبيله أخوها الأكبر أو أحد أعمامها، مشترطا مبلغا ماليا نظير فسحه الطريق لهما، فتبدأ المفاوضات و تشتد بين الجانبين إلى أن يحدث التراضي، و نظرا لما في هذا الطقس من ترفيه و مرح ففيه دلالة على اختبار مدى قدرته على إيصال زوجة أخيه مهما كلفه الامر من تضحية، في إشارة إلى أن الأخوة لا تقدر بثمن، فهو الحامي لزوجته و الأحق بصيانتها، عندها تخرج العروس مرافقة لأخ العريس و هي مغطاة" بالحايك"، حاملة تحت إبطها قطعة من الخبز، تجر أرجلها على الأرض بشكل متواصل، لما في ذلك من فأل خير على العازبات من أهلها قد تتزوجن من بعدها مباشرة، و عند وصولها إلى الدابة يحملها أخ الزوج بين ذراعيه ليجعلها تمتطيها، و كذالك الصندوق الذي يضم حاجياتها يضعه و بعض المرافقين على دابة أخرى، و في هذا تأكيد على الرابط الأخوي القوي الذي يجعل إمكانية إحلال الأخ مكان أخيه في مثل هذه المواقف أمر له أبعاده، باعتباره سندا يصون الأمانة و يحفظها لصاحبه، بعد ذلك يَهُمّ الوفد مغادرا في اتجاه بيت العريس، ليجدوهم في استقبالهم بالزغاريد و الأغاني الراقصة، فيتم رش العروس بالسكر الممزوج بالحناء الذي يرمز إلى الحياة الهنيئة البيضاء التي ستعيشها رفقة زوجها، و من العائلات من تنثر على رأسها بعضا من القمح، في إشارة إلى الخصوبة و الإنجاب اللذان ينتظرانها، مرة أخرى يتكلف أخ الزوج بإنزال العروس من على الدابة، ليحملها بين ذراعيه إلى غاية باب عش الزوجية، أثناءها تعطى لها بيضة تضرب بها حائط البيت، لتدخله بخفة فائقة حتى لا تصاب بشضاياها، لما في ذلك من فأل خير على العروسين من أن تمر ليلة الدخلة دون أن ينتابهما مكروه، في هذه الأثناء يكون العريس بمعية وزيره و بعض المرافقين من الشباب العزاب في الحوش، ينتظر إشارة الدخول على زوجته التي يجهل وجهها و لم يسبق أن تشرَّف برؤيته، امتثالا للتقاليد التي تُشدد في احترام هذه العادة التي دأبت عليها القبيلة، كما تُمنع العروس أيضا من الخروج من الدار منذ خِطبتها إلى أن تُحمل إلى زوجها.

نظرا لقدسية ليلة الدخلة فإن طقوسا يتم ممارستها من أجل تمريرها في أحسن الظروف و دون أذية لأحد العروسين، ففيها ما يصون من "اتقاف" كنوع من الشعوذة التي قد تحول فرحة الليلة إلى كآبة، الأمر الذي يجعل العريس يتسحب خلسة إلى مخدع الزوجية دون أن يرمقه أحد من الحاضرين، أو يوضع له" غراف" مملوء بالماء وسط الحوش، فيقوم بركله حتى يتناثر الماء، ليستمر في المشي رفقة" لوزير" متجها إلى بيته ليجد أمه ممدة أمام الباب، فيعمل على تخطيها، لما في ذلك من رمزية على تجاوز صعوبات ليلة الدخلة، و في هذه الأثناء يتلبس الخوف و العبوسة محيا العائلتين إلى أن يعطي العريس إشارة أنه وجد عروسه عذراء، فتنتعش الأجواء من جديد على أصوات الزغاريد و طلقات البارود، فتقوم الأم بإظهار المنديل المخضب بدماء العذرية، في جو غنائي راقص، ترمي به في الهواء بين حين و آخر

إلى أن تسلمه للمرأة المسنة المرافقة للعروس و التي يطلق عليها" تمظروفت"، لتسلمه بدورها للوفد الحاضر من جهتها، فيقفلون راجعين إلى الديار مصحوبين بما يرمز إلى الشرف و العفة، في شكل" علام" يسير به الموكب إلى غاية منزل العروس ليقدم إلى أمها كعربون تحتفظ به للشهادة على ذلك.
أما إذا حدث العكس، فإن العريس لا يتسامح مع العروس الغير العذراء، فيتم فضحها و إرجاعها إلى دار عائلتها في موقف حرج و كئيب من أهلها، لتبقى وصمة عار منقوشة على جبينها لا يمحوها النسيان، و في هذه الحالة و بحضور وجهاء القبيلة يتم اختيار إحدى الفتيات الحاضرات لتزف إلى عريسها، بعد التشاور لاتخاذ هذا الإجراء المتداول في مثل هذه المواقف.
طقوس متعددة تختلف حسب العائلات، و حسب كل قبيلة و منطقة، مما يصعب حصرها و النبش فيها، إلا ما سمعناه من الأجداد و عشنا بعضه مع الأعمام و الأخوال.

انتهت ليلة الدخلة بكل تفاصيلها وفق قواعد طقوسية تم الانضباط لها، لما تشكله من حماية للعروسين من صعوبات مختلفة، قد تكدر صفوهما و تقلب أفراحهما إلى منغصات، و لن يتم لهما هناء مميزا إلا بتمرير هذه الليلة المقدسة بما يستدعي التفاخر و الاعتزاز، بعد إثبات عفة و شرف العروس و فحولة الرجل، خوفا من أن يتلبسهما العار حسب الذهنية الشعبية السائدة، و لما كان في الطقوس المتوارثة ما يحقق المبتغى، فإن في مجافاتها و عدم تنفيذ شروطها ما يُوقِع الزوجين في المحضور الذي يتوجس منه الجميع و يتجنب حدوثه، لذلك وجدوا في ممارسة العوائد الموروثة وقاية من كل مكروه، و حافظة للعزة و النخوة، فبعد ليلة الدخلة تكون العروس قد وفدت معها قبلا إلى بيت الزوجية بأنواع من المكسرات و الحلويات و البيض و العلكة و الحلوى، و بعض الهدايا على شكل" بلوزة" لأم العريس تهاديها بها صباح اليوم الثاني، و جلباب و بلغة للأب، تحرص الأم على انتقاء هذه الأشياء بعناية شديدة درءا لحساسية الموقف، إضافة إلى السواك و الكحل الذي تكون قد وزعته على شكل رزمات "كمُّوسات"، و بعض الهدايا الأخرى الخاصة بالأطفال، مباشرة بعد مغادرة "تمظفورت" لعش الزوجية في اتجاه بيت عائلة العروس، تدخل النساء عليها وهي مزينة بالعطور الطبيعية، لابسة إحدى الفساتين التي أتت بها، في جو من الفرح و المرج و هن يرددن" عطيولنا العلف، عطيونا العلف..."، لتقوم العروس بتوزيع تلك الرزمات عليهن و بعض الهدايا للأطفال، و تهم في الآن ذاته بتقديم المكسرات و البيض من باب إشراك الطعام، و خلق الانسجام بينها و بين أفراد العائلة، و في كل ذلك فإن النساء لا ينقطعن عن إطلاق الزغاريد، لتستمر الأهازيج الغنائية بنفس الوتيرة، فيبدأ طقس ما عرف" بالحجبة" الذي يرمز إلى الاحتشام و الحياء، حيث يتم حجب العروسين عن أنظار الحاضرين في بيت واحد إلى أن يتم تكليف أحد الصبية لقطع الحجاب، و من العرائس من قد تغلب عليها الحشمة فتفر مغادرة البيت، لكنها تبقى مناسبة تُنتهز فيها الفرصة للتقرب من عائلة العريس، و إبعاد الكلفة و التصنع بينهما، و نسج علاقة فيها من الانسجام و الائتلاف اللذان يوحيان بدوام العشرة الهنيئة، و في غمرة هذه الطقوس و شعائرها يعلن" لَوزير" عن الانتقال لمرحلة أخرى يطلق عليها" أخضاف أهركوس"، و هي لعبة مرحة تحتاج إلى مال و صبر و براعة في الحوار، فالشباب العزاب يترأسهم" لوزير" يقومون بحراسة" مولاي السلطان" و كل حاجياته، في حرص شديد لئلا يتم اختطافه أو بعض لوازمه من طرف المتزوجين، فما ينتزع منهم بالخدعة يقدم للعروس التي تكون بدورها قد جهزت ما يسمى "بالعلف"، فهو طبق ممزوج بأنواع من المكسرات و البيض، تمد المختطفين بحفنة منه، و كذلك العزاب إذا قاموا بشراء الأشياء المتنازع عليها، أما إذا وصلت الحاجة المختطفة إلى أهل العروس، فاستردادها سيكلف الشباب مبلغا باهضا قد يعجزون عن أدائه، فيعرضهم للسخرية من قلة الحيلة، فهي لعبة تسيطر عليها الأنفة و التنافسية الشريفة، لأجل حماية من يحتاجون إليها، و الذود عنهم حتى لا يتعرضون للمقايضة، لما فيها من الاستخفاف من ضعفهم، و عدم قدرتهم على المواجهة في الميدان.
خلال اليوم الثالث من الزواج تفِد الأم و مرافقاتها من العائلة باستثناء الأب، محملة بكل لوازم الاحتفاء بطقوس هذا اليوم، فتكون عبارة عن ذبيحة و طبق ممزوج بأنواع المكسرات و البيض و الحلوى، فهذا اليوم يعد مرحلة فاصلة للعروس من حيث انتقالها من فترة الراحة و الإعفاء من الواجبات المنزلية، إلى ممارسة مسؤولياتها الزوجية، لذلك فربط العروس" بالحزام" إشارة ضمنية لإبراز خفتها و قدرتها على

القيام بأشغال البيت" لحداكة"، وشعائر هذا الطقس تصب في هذا المضمار، بحيث يتم جلب قصعة من الطين يتوسطها" مَسْياس" داخله بيضة طازجة، تضع فيها العروس رجلها اليمنى لتتولى إحدى النسوة غسلها، على أن يأتي أصغر إخوة العريس فيقوم بحزمها بحزام من" النقرة"، تكافؤه بمبلغ من المال نظير انخراطه في شعائر هذا الطقس، و في كل هذه الأجواء المميزة تنغمس النساء في صنع الفرحة، بتأدية وصلات غنائية راقصة، تتبادل فيها العائلتان إطراءات و مدائح في مناقب بعضهما، إلى أن يأتي المساء حيث يجتمع الشباب العزاب و المتزوجون من جديد، للمزايدة على طبق مملوء بأنواع المكسرات و البيض و.....، و طبق به لحم و لوازمه، فإذا عجز الشباب عن شرائه يتم تكبيلهم على سبيل اعتقال المنهزم في المعركة، إلى أن تتدخل محكمة النساء فتصدر العفو عنهم، و يُحكم عليهم بالطرد من العرس حتى يأتي العفو من" مولاي السلطان" في نفس الأمسية، لينخرط الجميع في عملية لغرامة من جديد التي تأخذ طابع ديْن يُسجل فيما يعرف" بالزمام"، على أن تجمع تلك الإعانات المالية في منديل لتهدى للعروسين، عندها تقفل أم العروس راجعة إلى بيتها، فتترك مع العروس "تمضفورط" لتتولى شؤونها، و تشاورها فيما شَكُل عليها من أمور حياتية مختلفة، و في اليوم الموالي للحزام تستفيق العروس باكرا للقيام بشؤون البيت، لتتعرض لعملية اختبار قدرتها على الكنس و الطبخ و عجن الخبز، و إلا سينطبق عليها المثال الشعبي" لمرا لي ما تغربلش دقيقها غير ترجع على طريقها" ، في إشارة إلى شرط المهارة و" لحداكة" في إنجاح الحياة الزوجية و استمرارها.

تنتهي طقوس الزواج خلال اليوم السابع بمرحلة أساسية يطلق عليها" حب الراس"، حيث يقوم العريس و عائلته بزيارة أهل العروس، محملين بالذبيحة و لوازمها تقديرا لعظمة هذا اليوم، حيث يتم فيه التقاء العريس بنسيبه لأول مرة، لتُرفع بينهم الكلفة و الاحتشام الزائد، تمهيدا للتزاور فيما بينهم على أساس أنه أصبح واحدا من أهل البيت.

كما تتضمن المنظومة الطقوسية الاعتقادية أيضا مجموعة من السلوكات التي لا يجوز الاعتراض عنها لأهميتها و تنوعها، و ما ترمز إليه من دلالات عميقة، جعلها من المسلمات الأساسية المتوارثة التي استبدت بالعقول و النفوس، و جعلها تعمر طويلا في مقاومتها لأسباب الإندثار، من خلال الحرص الشديد على استمرارها، لكونها مسترسلة و متلازمة لبعضها و لا يمكن تجاوز إحداها، فهي فسيفساء من العادات المترابطة و المتراكمة خلال حقب متعددة من التاريخ، فرغم تعرضها لمؤثرات الحداثة و العصرنة إلا أن حضورها لا زال لافتا و لو بالنزر القليل منها، مما يفتح نقاشا مستفيضا حول التخلي عن مجموعة من الطقوس في مقابل تعويضها بعوائد تحررية، تحمل في جعبتها الكثير من التغييرات التي أتت بها رياح العولمة و الاحتكاك بثقافة الآخر، لكنها تبقى موروثا ثقافيا نابعا من تراث شعبي يؤثث الذاكرة و يغني مخزونها، فالحديث عن الثورة على المنظومة الطقوسية بسلبياتها و إيجابياتها لا تتم بمعزل عنها، بل هي امتداد متواصل ضمنيا لهذا الموروث الثقافي، لكن بحلة أخرى تتضمن ترسانة من المتغيرات، فيها إيحاءات من هذه الطقوس التي يبدو أنها لن تخبو لارتباطات تاريخية تجمع بينهما، لذلك يبقى استحضار هذا الموروث و استجماعه للإغناء و التعريف به حتى لا يطاله النسيان، أمر يحتاج إلى الإهتمام و الدقة في صحة المعلومة، لربط السابق باللاحق من أجل الإنتقال إلى مرحلة أسمى و بأسس سليمة بعيدة عن اجترار الماضي التليد، أو السقوط في تقليد الآخر و التشرب بعوائده الغريبة عن مجتمعاتنا، فالتغيير من المفروض أن ينطلق من جذور لها امتدادها عبر التاريخ، للوصول من خلالها و عبر مراحل فيها من التدرج ما يوصل إلى نتائج تحررية، يرتضيها الجميع و ينسجم مع عوائدها المتجددة، و كل انسلاخ عن الماضي يعني انسلاخ عن الهوية و مكوناتها الثقافية.

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف محمد ستي © 2019